

جَبَّارَةُ الْغَابَةِ

جبارة الغابة

(١) حَدِيثُ النَّسِيمِ

مَرَّ نَسِيمُ الصَّبَاحِ عَلَى الْأَزْهَارِ الْبَهِيجَةِ النَّاصِرَةِ الَّتِي تَزْدَانُ بِهَا الْأَجْمَةُ، وَهَمَسَ النَّسِيمُ فِي أَثْنَاءِ حَطَرْتِهِ (فِي خِلَالِ مُرُورِهِ):

«يَا لَهُ مِنْ نَبَاٍ هَائِلٍ! يَا لَهُ مِنْ نَبَاٍ هَائِلٍ!»

فَانزَعَجَتِ الزَّهْرَاتُ، وَقَالَتْ مَدْهُوشَةً: «أَيَّ نَبَاٍ تَحْمِلُ، يَا نَسِيمَ الصَّبَاحِ؟»

فَهَمَسَ النَّسِيمُ الْبَلِيْلُ (الْمَحْمَلُ بِالنَّدَى، الْمُبَلَّلُ بِهِ):

«لَقَدْ هَلَكْتَ جَبَّارَةُ الْغَابَةِ! لَقَدْ هَلَكْتَ جَبَّارَةُ الْغَابَةِ!»

فَقَالَتْ زَهْرَةُ الْأُقْحُوَانِ، وَهِيَ أَعْلَى أَزْهَارِ الْغَيْضَةِ ارْتِفَاعًا (وَالْغَيْضَةُ: مُجْتَمَعُ الشَّجَرِ):

«أَتَعْنِي: السَّنْدِيَانَةُ الْعَجُوزُ؟ وَكَيْفَ هَلَكْتَ هَذِهِ الْجَبَّارَةُ، وَهِيَ مِثَالُ الْقُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ؟

هَذَا لَا يَكُونُ؛ فَإِنَّ الْعَمَالِقَةَ الْأَشْدَاءَ لَا يَمُوتُونَ. وَمَا أَحْسَبُكَ إِلَّا وَاهِمًا مُخْطِئًا فِي حُسْبَانِكَ،

يَا سَيِّدِي النَّسِيمِ.

وَكَيْفَ تُرِيدُنَا عَلَى أَنْ نَصَدِّقَ هَذَا النَّبَأَ، وَقَدْ كَانَتْ — إِلَى أَمْسٍ — شَامِخَةً ذَاهِبَةً

فِي الْفَضَاءِ، كَأَنَّهَا الْعَمَلِاقُ الْعَظِيمُ، أَوْ الْمَارِدُ الْجَبَّارُ الْهَائِلُ، كَمَا حَدَّثْتَنِي عَنْهَا صَدِيقَتِي

الْقَنْبَرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُعَرِّدُ عَلَى أَفْنَانِهَا (تَعْنِي عَلَى أَغْصَانِهَا) فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ؟»

فَجَمَجَمَ النَّسِيمُ (تَكَلَّمَ خَافَتِ الصَّوْتِ)، وَهُوَ يَبْتَئِدُ:

«لَقَدْ مَاتَتْ جَبَّارَةُ الْغَابَةِ، وَلَقِيَتْ حَتْفَهَا (مَوْتَهَا) لَيْلَةَ أَمْسٍ. نَعَمْ هَلَكْتَ الْجَبَّارَةُ،

وَقَتَلَتْهَا الْعَاصِفَةُ قَتْلًا!»

(٢) حُزْنُ الشَّرَاشِيرِ

وَكَانَ شُرُشُورَانِ يَمْرَحَانِ عَلَى حَافَةِ الْأَجْمَةِ، فَسَمِعَا هَمْسَ النَّسِيمِ وَأَصْغَيَا إِلَى كُلِّ مَا قَالَهُ؛
فَتَمَلَّكُهُمَا الدَّهْشُ وَالْعَجَبُ.

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشِرَةَ»:

«أَتَصَدَّقُ هَذَا النَّبَأَ الْهَائِلَ! إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ تَصَدِيقَهُ!»

فَأَجَابَهَا «أَبُو بَرَّاقِشَ»:

«مَا أَظُنُّهُ كَاذِبًا فِيمَا قَالَ؛ فَلْنَنْظُرْ إِلَيْهَا لِنَتَنَبَّأَ.»

فَأَقْرَنَتْهُ «أُمُّ شَرَشِرَةَ» عَلَى رَأْيِهِ.



نُمَّ طَارَ الشَّرْشُورَانِ — مِنْ فُورِهِمَا (تَوًّا) — وَأَخْفَقَا (ضَرْبًا بِأَجْبَحْتِهِمَا)، وَسُرْعَانَ مَا وَصَلَا إِلَى شَجَرَةِ الْبُلُوطِ. وَثُمَّ (هُنَاكَ) أَيْقَنَّا أَنَّ النَّسِيمَ لَمْ يَكُنْ مَخْدُوعًا فِيمَا عَرَفَهُ، وَلَا كَاذِبًا فِيمَا قَرَّرَهُ.

لَقَدْ رَأَى الشَّرْشُورَانِ مَصْرَعَ جَبَّارَةِ الْغَابَةِ، وَحَزْنَتْهُمَا تِلْكَ الْخَاتِمَةُ الْمُؤَلَّمَةُ، وَهَالَهُمَا (أَخَافُهُمَا) أَنْ يَرِيَا جِسْمَهَا الْكَبِيرَ مَطْرُوحًا عَلَى الْأَعْشَابِ، وَقَدْ اقْتَلَعَتِ الْعَاصِفَةُ جُذُورَهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَحَطَّمَتْ أَغْصَانَهَا بِلَا رَحْمَةٍ.

وَنَظَرَ الشَّرْشُورَانِ إِلَى شَجَرَةِ الْبُلُوطِ بِعُيُونٍ دَامِعَةٍ.

وَقَالَتْ «أُمُّ شَرْشَرَةَ» بِصَوْتٍ خَافِتٍ:

«أَلَا تَرَى هَذِهِ النُّكْبَةَ الْهَائِلَةَ؟ لَا جَرَمَ (حَقًّا) أَنَّهَا خَسَارَةٌ فَادِحَةٌ، يَا أَبَا بَرِاقِشَ.

وَسَيَحْزَنُ عَلَيْهَا إِحْوَتُنَا الشَّرَاشِيرُ، وَغَيْرُهَا مِنَ الطُّيُورِ.»

فَأَجَابَهَا «أَبُو بَرِاقِشَ»، وَقَدْ اشْتَدَّ بِهِ الْأَسَى وَالْحُزْنُ:

«صَدَقْتِ — يَا أُمُّ شَرْشَرَةَ — فَهِيَ نُكْبَةٌ جَسِيمَةٌ، وَخَسَارَةٌ لَا تُعَوِّضُ. لَقَدْ انْقَضَى

الْيَوْمَ عَهْدُ (انْتَهَى زَمَنٌ) سَعِيدٌ، طَالَمَا نَعْمَنَا بِهِ بَيْنَ أَغْصَانِ هَذِهِ الْجَبَّارَةِ الْعُجُوزِ. وَلَنْ

نَنْظُرَ — بَعْدَ الْآنَ — بِمَا نَعْمَنَا بِهِ فِي ظِلَالِهَا الْوَارِفَةِ الْمُبْسُوطَةِ مِنَ الْمَرْحِ وَالزَّقْرَقَةِ،

وَتَمَثِيلِ أَدْوَارِ الْإِسْتِحْفَاءِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَلْعَابِ الْبِهِيجَةِ.

وَمَا أَشَدَّ حُزْنَنَا لِمَصْرَعِكَ، وَمَا أَشَدَّ أَلَمَنَا لَوْدَاعِكَ، أَيُّهَا الشَّجَرَةُ الْعَزِيْزَةُ عَلَيْنَا! فَلَقَدْ

طَالَمَا خَفَقْنَا (جُطِرْنَا) وَأَوْيْنَا إِلَيْكَ (اتَّخَذْنَاكَ لَنَا مَنْزِلًا)؛ فَأَوَيْتَنَا، كَمَا أَوَيْتَ غَيْرَنَا مِنْ

كِرَامِ الطُّيْرِ، وَأَنْقَذْتَ أَرْوَاحَنَا وَأَرْوَاحَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ. وَكَمْ حَبَاتُ أَغْصَانِكَ الْكَبِيرَةِ مِنْ طُيُورٍ

كَانَتْ تَلُوذُ (تَلَجَّأُ وَتَحْتَمِي) بِكَ، كُلَّمَا رَأَتْ «أَبَا الْأَشْعَبِ»: ذَلِكَ الْبَارِي الشَّرِسَ، وَهُوَ يَتَلَمَّسُهَا

(يَتَطَلَّبُهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى) جَاهِدًا فِي بَحْثِهِ عَنْهَا؛ فَلَا يَظْفَرُ مِنْهَا بِطَائِلٍ (لَا يَرِجِعُ بِفَائِدَةٍ).

وَكَمَ وَقَيْتَهَا غَائِلَةَ الْعِقْبَانِ! وَلَسْتُ أَنْسَى تِلْكَ الْأُسْرَةَ مِنَ الْعِقْبَانِ الْفِتَاكَةِ (الْمُفْتَرِسَةِ)، حِينَ

قَدِمَ الْعَرْنُ: رَبُّ تِلْكَ الْأُسْرَةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يُحَادِثُ زَوْجَهُ: «الْقَنُوءَ» وَوَلَدَهُ «النَّاهِضَ». وَقَدْ

تَمَلَّكُهُ الْعُضْبُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْنُرْ عَلَى طَائِرٍ وَاحِدٍ يَأْكُلُهُ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرْشَرَةَ»: «وَهَلْ نَسِيتِ أُسْرَةَ النَّسُورِ الَّتِي وَفَدَتْ عَلَيْنَا — مُنْذُ أَسَابِيحِ —

وَقَدْ ضَاعَ تَعَبُ «الضَّرِيكِ» رَبِّ تِلْكَ الْأُسْرَةِ، وَزَوْجِهِ «الْعِترَةِ» وَوَلَدِهَا «الْهَيْثِمِ»، بِلَا طَائِلٍ

جَبَّارَةُ الْغَايَةِ



(بِعَيْرٍ فَائِدَةٍ): لِأَنَّ الطُّيُورَ قَدِ اخْتَبَأَتْ بَيْنَ أَغْصَانِ هَذِهِ الْجَبَّارَةِ، فَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهَا عَيْنٌ كَائِنٍ كَانُ؟»

فَقَالَ «أَبُو بَرَأَقِشَ»: «كَلَّا، لَمْ أَنْسَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الذُّكْرِيَّاتِ. وَكَمْ لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ الْعَزِيزَةِ عَلَيْنَا مِنْ مَأْتَرٍ (مَكْرَمَاتٍ) وَأَيَادٍ لَا تُحْصَى (نَعَمْ لَا تُعَدُّ)!»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ»: «لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ هَذِهِ الْجَبَّارَةَ لَا تَمُوتُ!»

فَقَالَ «أَبُو بَرَأَقِشَ»: «لَمْ يَكُنْ يَدُورُ بِخَلْدِي (يَمُرُّ بِبَالِي) قَطُّ أَنَّ هَذِهِ الْجَبَّارَةَ تَهْلِكُ (تَمُوتُ)، لِأَنَّهَا مِثَالُ الْقُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ مَضْرَعَهَا (مَقْتَلَهَا) سَيُحْزِنُ أَصْدِقَاءَنَا، حِينَ يَعْلَمُونَ نَبَأَهُ الْهَائِلِ (خَبْرَهُ الْمُحْزِنَ). وَالآنَ — وَقَدْ انْقَضَى هَذَا الْعَهْدُ السَّعِيدُ، وَذَهَبَتْ تِلْكَ الْأَيَّامُ الْهَنِيئَةُ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ — أَجِدُنِي مُتَالِمًا حَزِينًا، وَأَنَا أَسْأَلُ نَفْسِي: تَرَى كَيْفَ تَعِيشُ السَّنَاجِبُ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ؟»

لَعَلَّكَ رَأَيْتَ السَّنْجَابَ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ — فِي حَدِيقَةِ الْحَيَوَانِ، وَلَعَلَّكَ لَا تَزَالُ تَذَكَّرُ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ الطَّوِيلَ الذَّنْبِ، الْحَسَنَ الشَّعْرِ، الَّذِي يُشَبَّهُ بِلَوْنِهِ، فَيُقَالُ اللُّونُ السَّنْجَابِيُّ!

وَاسْتَأْنَفَ «أَبُو بَرَأَقَش» قَائِلًا: «تُرَى كَيْفَ تَتَفَرَّ هَذِهِ السَّنَاجِيبُ بِطَعَامِهَا فِي فَصْلِ الشَّتَاءِ، وَقَدْ حُرِمَتْ الْقُسْطَلُ — نَمَرَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ النَّافِعَةَ — الَّذِي هُوَ أَشْهَى ثَمَارٍ فِي الْأَجْمَةِ؟»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ»، وَهِيَ تَتَفَرَّ حَوْلَ الشَّجَرَةِ الْهَالِكَةِ:
«خَبَّرَنِي — يَا أَبَا بَرَأَقَش — أَتَرَاهُمْ يَتْرُكُونَ هَذِهِ الْجَبَّارَةَ الصَّرِيعَ، طُولَ فَصْلِ الشَّتَاءِ، فِي هَذَا الْمَكَانِ؟»

فَأَجَابَهَا «أَبُو بَرَأَقَش»: «كَلَّا يَا عَزِيزَتِي؛ فَإِنَّ رِجَالَ الْقَرْيَةِ سَيَحْضُرُونَ لِلْإِحْتِطَابِ (اِقْتِطَاعِ الْحَطَبِ)، بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَلَنْ يَتْرُكُوهَا حَيْثُ هِيَ؛ لِأَنَّ حَسَبَ الْبُلُوطِ عَظِيمُ الْفَائِدَةِ، جَلِيلُ النِّفْعِ لِلنَّاسِ. وَقَدْ حَدَّثْتَنِي أُخْتِي «أُمُّ بَرَأَقَش» أَنَّ النَّاسَ يَبْنُونَ مِنَ الْبُلُوطِ بَيْوتًا كَبِيرَةً، تَمْشِي عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ، يُسْمُونَهَا: سَفْنَا وَبَوَاحِرَ وَمَرَكَبَ.»

فَصَاحَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ» بِصَوْتِ حَزِينٍ:
«يَا لَكَ مِنْ جَبَّارَةٍ تَاعَسَتْ، أَيُّهَا الشَّجَرَةُ الْعَجُوزُ. وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنْ لَكَ تَارِيخًا حَافِلًا. فَمَنْ لَنَا بِأَنْ نَتَعَرَّفَ قِصَّتِكَ؟»

فَقَالَ «أَبُو بَرَأَقَش»: «صَدَقْتَ — يَا زَوْجِي الْعَزِيزَةَ — فَإِنِّي شَدِيدُ الشُّوقِ إِلَى تَعَرُّفِ قِصَّةِ هَذِهِ الْجَبَّارَةِ الصَّرِيعِ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ»: «فَلْنَذْهَبْ إِلَى «أَبِي الْخُطَّافِ»، أَعْنِي ذَلِكَ الْحِدَاةَ الذَّكِيَّ، لِنَتَعَرَّفَ مِنْهُ قِصَّةَ الْجَبَّارَةِ الْهَالِكَةِ.»

فَقَالَ لَهَا «أَبُو بَرَأَقَش»: «كَلَّا يَا عَزِيزَتِي، بَلْ نَذْهَبْ إِلَى «ابْنِ دَائِيَّةَ»: ذَلِكَ الْعَقْعُقُ الْهَرَمُ (الْغُرَابُ الْمُسْنُ)؛ لِيَقْصَّ عَلَيْنَا أَنْبَاءَ الشَّجَرَةِ. فَهُوَ — وَحْدَهُ — خَبِيرٌ بِتَارِيخِهَا كُلِّهِ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ»: «أَتُظَنُّهُ أَعْلَمَ مِنْ «أَبِي الْخُطَّافِ» بِتَارِيخِهَا؟»

فَقَالَ «أَبُو بَرَأَقَش»: «لَيْسَ فِي هَذَا شَكٌّ، فَهُوَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرَشْرَةَ»: «هَلُمَّ (تَعَالَ)، فَلْنَذْهَبْ إِلَيْهِ جَمِيعًا.»

(٣) ابْنُ دَائِيَّةَ

كَانَ «ابْنُ دَائِيَّةَ» عَقَقًا ذَكِيًّا، طَاعِنًا فِي السَّنِّ. وَكَانَ بَعْضُ النَّاسِ يُطْلِقُ عَلَيْهِ اسْمَ «الْغَرَابِ النُّوحِيِّ» — لِكَثْرَةِ نَوَاجِحِهِ (بُكَائِهِ) — كَمَا كَانَ الْأَحْرُونَ يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ اسْمَ «الْعَقَقِ»؛ لِأَنَّهُ يُكْتَبَرُ مِنَ النَّطْقِ بِكَلِمَةِ «عَقُ — عَقُ».

وَكَانَ «ابْنُ دَائِيَّةَ» هَذَا شَيْخًا مُسِنًّا — كَمَا قُلْنَا — فَأَصْبَحَ — لِضَعْفِهِ — لَا يَكَادُ يَبْرُحُ وَكْرَهُ (قَلَمًا يُفَارِقُ عُنُقَهُ) الَّذِي اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ، فِي رَأْسِ شَجَرَةٍ بِاسْمَةِ (عَالِيَّةِ) مِنْ أَشْجَارِ الْحُورِ. وَقَدْ ضَعُفَ بَصَرُ (ابْنِ دَائِيَّةَ) مِنَ الْكِبَرِ، وَانْتَابَتْهُ أَعْرَاضُ الشَّيْخُوخَةِ؛ فَأَصْبَحَ لَا يَكَادُ يُبْصِرُ شَيْئًا، وَتَسَاقَطَ رِيشُهُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ.

وَلَمَّا وَصَلَ الشَّرْشُورَانِ إِلَى وَكْرِ الْعَقَقِ، سَلَّمَا عَلَيْهِ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِمَا التَّحِيَّةَ، بَعْدَ أَنْ عَرَفَ صَوْتَهُمَا. ثُمَّ قَالَ لَهُمَا بِصَوْتِهِ الْأَبْحِ (الْغَلِيظِ الَّذِي فِيهِ بُحَّةٌ): «أَهْلًا وَسَهْلًا بِكُمَا، أَيُّهَا الْعَزِيزَانِ الصَّغِيرَانِ!»

فَقَالَا لَهُ: «سَعِدَ يَوْمُكَ، يَا عَمَّنَا الْعَزِيزَ.»

وَإِنَّمَا أُطْلِقًا عَلَيْهِ اسْمُ: الْعَمِّ — وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا عَمًّا — لِأَنَّ طُيُورَ الْبَلَدِ كَلَّهَا تَعَوَّدَتْ أَنْ تُنَادِيَهُ بِهَذَا اللَّقْبِ.

ثُمَّ قَالَ الشَّرْشُورَانِ: «كَيْفَ صِحَّتُكَ — فِي هَذَا الصَّبَاحِ — يَا عَمَّنَا «ابْنُ دَائِيَّةَ»؟»

فَقَالَ لَهُمَا: «لَيْسَتْ عَلَيَّ مَا يُرَامُ (لَيْسَتْ كَمَا أَحَبُّ وَأَشْتَهِي) يَا عَزِيزَيَّ. فَقَدْ رَابَنِي بَصْرِي (لَقِيتُ بِهِ مَا أَكْرَهُ)؛ فَلَا أَكَادُ أُبْصِرُ شَيْئًا. فَخَبِّرْنِي: مَاذَا عِنْدَكُمَا مِنَ الْأَنْبَاءِ الْجَدِيدَةِ؟»

فَقَالَا لَهُ: «أَلَا تَعْرِفُ — يَا عَمَّنَا — أَنَّ الْعَاصِفَةَ قَدِ اقْتَلَعَتْ شَجَرَةَ الْبُلُوطِ الْعَجُوزَ، الَّتِي نَطْلِقُ عَلَيْهَا اسْمَ «جَبَّارَةِ الْعَابَةِ»؟»

فَدَعَرَ «الْعَقَقُ» (خَافَ)، وَوَقَفَ عَلَى إِحْدَى رِجْلَيْهِ، وَقَالَ مَدْهُوشًا: «أَيُّ نَبِيٍّ تَحْمِلَانِ؟ وَكَيْفَ تَقُولَانِ؟ أَجَبَّارَةُ الْعَابَةِ تَعْنِيَانِ؟ كَيْفَ هَلَكْتَ؟ لَعَلَّكُمَا تَرِيدَانِ أَنْ تَعْبَثَا (تَهْزَأَا) بِي، وَتَضْحَكَا مِنِّي!»



فَقَالَ الشُّرُورَانِ: «كَلَّا، كَلَّا — يَا أَبَا عَقْعَقٍ — لَيْسَ مَزَاحًا مَا نَقُولُ. إِنَّهَا الْحَقِيقَةُ الرَّاهِنَةُ (الْحَاضِرَةُ الْوَاقِعَةُ) الَّتِي لَا شَكَّ فِيهَا، وَقَدْ جِئْنَا نَسْأَلُكَ: هَلْ تَعْرِفُ قِصَّةَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَتَارِيخَهَا؟»

فَقَالَ «الْعَقْعَقُ» مُتَأَلِّمًا مَحْزُونًا: «قِصَّتُهَا وَتَارِيخُهَا؟ كَيْفَ أَجْهَلُهُمَا؟ وَمَنْ أَعْرَفُ بِهِمَا مِنِّي وَأَخْبِرُ؟ أَجَلْ (نَعَمْ) أَعْرِفُهُمَا عَلَى التَّحْقِيقِ. وَقَدْ حَدَّثْتَنِي أُمِّي بِهِمَا — رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهَا — أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ... مَسْكِينَةُ شَجَرَةِ الْبَلُوطِ! أَمَاتَتْ؟ هَا نَحْنُ أَوْلَاءُ قَدْ فَقدْنَا صَدِيقًا كَرِيمًا، عَزِيزًا عَلَيْنَا أَنْ نَفْقِدَهُ!»

(٤) نَشَأَةُ الْجَبَّارَةِ

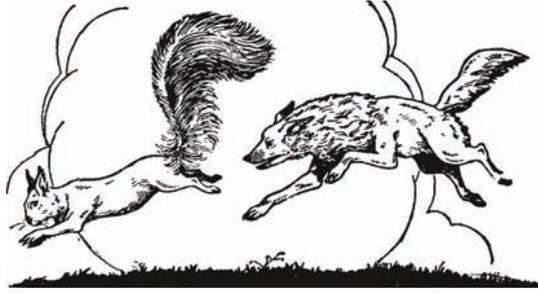
وَجِئْتُمْ (قَعْدَ) الشُّرْشُورَانِ عَلَى حَافَةِ الْعُشِّ، وَوَقَفَ الْعُقُوقُ، ثُمَّ قَالَ مُتَحَسِّرًا مُتَفَجِّعًا:
 «إِلَيْكُمَا (خُذَا) — يَا عَزِيزِي — قِصَّةَ هَذِهِ الْجَبَّارَةِ الْعُجُوزِ: لَقَدْ حَدَّثْتُ، مُنْذُ زَمَنِ
 بَعِيدٍ: بَعِيدٍ جِدًّا، قَبْلَ أَنْ تُوَلِّدَ أَشْجَارُ هَذَا الْبَلَدِ كُلُّهُ — الَّتِي تَرَيَانَهَا أَمَامَكُمَا — أَنْ سَقَطَتْ
 ثَمْرَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ هِيَ شَجَرَةُ الْبَلُوطِ، الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ
 الْغَابِرِ. وَكَانَ فِي تِلْكَ الثَّمْرَةِ طِفْلٌ صَغِيرٌ، رَاقِدٌ فِي مَهْدِهِ، وَهُوَ — فِي مُسْتَهْلِّ حَيَاتِهِ —
 ضَعِيفٌ لَا قُوَّةَ لَهُ. وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْجَنِينُ إِلَّا بَدْرَةً صَغِيرَةً مِنْ نَوْعِ الْبُدُورِ الَّتِي تَرَيَانَهَا فِي
 ثَمَارِ الْبَلُوطِ. وَلَمْ يَكُنْ لِلْجَنِينِ أُمْنِيَّةٌ أَشْهَى (أَحَبُّ) إِلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَعْيشَ بِالْقُرْبِ مِنْ أُمِّهِ
 الْعَزِيزَةِ، حَيْثُ يَحْيَا فِي أَمْنٍ وَدَعَاةٍ (رَاحَةٍ وَطَمَأْنِينَةٍ)، تَحْتَ أَغْصَانِهَا الْكَثِيفَةِ. وَلَكِنْ يُرِيدُ
 الْمَخْلُوقُ أَمْرًا، وَيُرِيدُ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — أَمْرًا آخَرَ. وَلَا مَرَدَّ لِمَشِيئَةِ الْخَالِقِ الْمُدَبِّرِ الْقَوِيِّ
 الْعَزِيزِ. سَقَطَتْ ثَمْرَةٌ عَلَى الْأَرْضِ — كَمَا حَدَّثْتُكُمَا — فَهَلْ تَعْلَمَانِ مَاذَا حَدَّثْتُ؟

لَقَدْ أَلَمَّتْهَا السَّقَطَةُ، وَأَذْهَلَهَا (أَنْسَاهَا) الْأَلَمُ، حَتَّى كَادَتْ تَفْقِدُ رُشْدَهَا. وَإِنَّهَا لَتُعَانِي
 (تُقَاسِي) أَلَمَ السَّقُوطِ، إِذْ بَصَرَ بِهَا سَنَجَابٌ، فَانْقَضَ عَلَيْهَا لِأُكْلِهَا. فَانزَعَجَ الْبَلُوطِيُّ
 الْجَنِينُ، وَاشْتَدَّ خَوْفُهُ، وَأَيَقَنَ أَنَّهُ — لَا مَحَالَهَ — هَالِكٌ. وَلَكِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — كَتَبَ لَهُ
 السَّلَامَةَ مِنَ الْهَلَاكِ، وَقِيضَ (هَيَأَ) لَهُ الْفَرَجَ، وَبَدَّلَ يَأْسَهُ رَجَاءً.

أَتَعْرِفَانِ كَيْفَ نَجَا الْجَنِينُ؟

لَقَدْ سَمِعَ عَوَاءٌ عَالِيًا: «عَوْ! عَوْ!» فَأَيَّ صَوْتٍ سَمِعَ؟ إِنَّهُ عَوَاءُ الْكَلْبِ. فَلَقَدْ نَشِطَ «ابْنُ
 وَازِعٍ» — وَهُوَ كَلْبٌ كَانَ يَعْيشُ قَرِيبًا مِنْ هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ — فَرَاحَ يَجْرِي مُسْرِعًا، وَهُوَ
 يَعْوِي خَلْفَ السَّنَجَابِ؛ لِيَلْحَقَ بِهِ وَيَفْتَرِسَهُ. فَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ السَّنَجَابِ (الْفَرَائِصُ جَمْعُ:
 فَرِيسَةٍ: وَهِيَ لَحْمَةٌ — بَيْنَ الْجَنْبِ وَالْكَتِفِ — تَهْتَرُّ عِنْدَمَا يَكُونُ الْخَوْفُ).

وَسُرِعَانَ مَا أَلْقَى السَّنَجَابُ ثَمْرَةَ الْبَلُوطِ الصَّغِيرَةَ، وَلَجَأَ إِلَى الْفِرَارِ حَتَّى لَا يَفْتِكَ بِهِ
 «ابْنُ وَازِعٍ» (لَكِي لَا يَفْتَرِسَهُ الْكَلْبُ).



(٥) مَوْطِنُ الشَّحَارِيرِ

وَلَبِثَ الْبُلُوطِيُّ الْجَنِينُ — مُنْذُ ذَلِكُمَا الْحِينِ — بَاقِيًا عِنْدَ حَافَةِ دَوْحَةٍ كَبِيرَةٍ، هِيَ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ مُنْسَعَةٌ، عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ سِيَاحِ كَبِيرٍ مِنْ أَشْجَارِ الْبُنْدُقِ. وَظَلٌّ فِي مَهْدِهِ رَاقِدًا مُسْتَسْلِمًا لِنَوْمٍ عَمِيقٍ — طَوَالَ الشِّتَاءِ — تَحْتَ الْحَشَائِشِ الْيَابِسَةِ الَّتِي يُغَطِّيهَا الْجَلِيدُ فِي ذَلِكُمَا الْفَصْلِ.

وَكَانَتْ الشَّحَارِيرُ تَغْشَى هَذَا الْمَكَانَ، وَتَحْتَلِفُ إِلَيْهِ، وَتُؤَثِّرُهُ (تَخْتَارُهُ) عَلَى غَيْرِهِ — مِنْ أَنْحَاءِ الْأَجْمَةِ — وَتَلْتَقِي عِنْدَهُ، لِتَتَنَاقَلَ أَسْمَارَهَا (أَحَادِيثَهَا الْجَمِيلَةَ)؛ فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ النَّاسُ اسْمَ «أَجْمَةِ الشَّحَارِيرِ».

(٦) يَقْظَةُ الطُّفْلِ

وَلَمَّا جَاءَ الرَّبِيعُ التَّالِي، اسْتَيْقَظَتْ بَذْرَةُ الْبُلُوطِ مِنْ سُبَاتِهَا (مِنْ نَوْمِهَا الْعَمِيقِ). فَأَحَسَّتْ جُوعًا شَدِيدًا، وَاشْتَهَتْ نَفْسُهَا الطَّعَامَ. فَلَمْ يَلْبَّ طَلِبَهَا أَحَدٌ ... وَمَنْ لَهَا بِأَمِّهَا الَّتِي تُعْنَى (تَهْنَمُ) بِهَا، وَتَلْبِي رَغْبَاتِهَا؟

لَقَدْ نَشَأَ هَذَا الطُّفْلُ النَّبَاتِيُّ — كَمَا حَدَّثْتُكُمَا — بَعِيدًا عَنِ أُمِّهِ. وَقَدْ شَعَرَ بِوَحْدَتِهِ وَضَعْفِهِ؛ فَحَزَنَ لِذَلِكَ، وَاشْتَدَّ أَلْمُهُ. وَلَوْ اسْتَطَاعَ الْبُكَاءُ لَبَكَى، كَمَا يَبْكِي الطُّفْلُ الْحَيَوَانِيُّ.

جَبَّارَةُ الْغَايَةِ

وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ — بَعْتَهُ — أَنْ أُمَّهُ وَضَعَتْ فِي مَهْدِهِ، قَبْلَ أَنْ يُفَارِقَهَا، وَسَادَتَيْنِ (مَحْدَتَيْنِ) صَغِيرَتَيْنِ مَمْلُوءَتَيْنِ بِطَعَامِهِ، وَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالذَّقِيقِ. وَقَدْ تَحَوَّلَ هَذَا الطَّعَامُ — تَحْتَ الْأَرْضِ الرَّطْبَةِ — عَجِينَةً. فَلَمَّا طَعِمَهَا (ذَاقَهَا) الطِّفْلُ الْبَلُوطِيُّ، اسْتَسَاغَهَا (اسْتَطْعَمَهَا)، وَهَسَّ لَهَا (ارْتَاحَ وَابْتَهَجَ). ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الطَّعَامِ — فِي شَرِّهِ عَجِيبٍ — حَتَّى نَمَا جِسْمُهُ، وَكَبِرَ جِرْمُهُ (حَجَمَهُ)؛ فَضَاقَ بِهِ مَهْدُهُ. وَشَعَرَ الطِّفْلُ بِضَيْقِ هَذَا السَّرِيرِ؛ فَتَسَلَّلَ مِنْ بَيْنِ هَاتَيْنِ الْوَسَادَتَيْنِ، بَعْدَ أَنْ أَكَلَ مَا تَحْوِيَانِهِ — مِنَ الْغِذَاءِ — وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْئًا يُذَكَّرُ. وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى عَالَمِ الْأَرْضِ، تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ (تَنَفَّسَ طَوِيلًا)، وَابْتَهَجَ وَشَعَرَ بِفَرَحٍ لَا مِثِيلَ لَهُ.

ثُمَّ تَحَوَّلَ — بَعْدَ قَلِيلٍ — إِلَى مَاذَا؟ أَلَا تَعْرِفَانِ؟ تَحَوَّلَ إِلَى جَذْرِ (أَصْلِ) صَغِيرٍ، كَمَا تَتَحَوَّلُ بُدُورُ النَّبَاتِ كُلِّهَا. وَشَقَّ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا مُسْتَقِيمَةً عُمُودِيَّةً فِي جَوْفِ الْأَرْضِ! وَمَا زَالَ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ يَرْتَوِي بِالْمَاءِ، وَيَتَغَدَّى بِعَصِيرِ الْأَرْضِ — وَقَدْ اسْتَعْنَى عَنِ الْعَجِينَةِ الْأُولَى الَّتِي حَدَّثْتُكُمَا عَنْهَا — ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَ غُلَامًا. وَلَكِنَّ الضُّجْرَ لِأَرْمِهِ، لِوَحْدَتِهِ وَوَحْشَتِهِ. وَمَا أَجْدَرَهُ بِذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْعُزْلَةَ تُسِيمُ وَتُضَجِرُ. فَلَا تَعْجَبَا إِذَا أَخْبَرْتُكُمَا أَنَّهُ كَانَ يَتَنَهَّدُ وَيَتَحَسَّرُ — طُولَ النَّهَارِ — وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ:

«أه! مَنْ لِي بِأَنْ أُخْرَجَ مِنْ هَذَا السَّجْنِ الضَّيِّقِ، إِلَى ظَاهِرِ الْأَرْضِ، لِأَرَى جَمَالَ الدُّنْيَا! وَلَعَلِّي أَظْفَرُ — إِذَا تَمَّ لِي هَذَا — بِأَصْدِقَاءَ خُلَصَاءَ يُبَادِلُونِي الْحُبَّ وَالْوَلَاءَ.»

(٧) فِي عَالَمِ الضُّوءِ

وَكَانَ الطِّفْلُ الْبَلُوطِيُّ صَبُورًا شَجَاعًا: شَأْنُ أَطْفَالِ الْبَلُوطِ جَمِيعًا. فَظَلَّ صَاحِبِنَا يَدْفَعُ رَأْسَهُ — بِكُلِّ مَا أُوتِيَهِ مِنْ قُوَّةٍ — لِيَرْفَعَ سَقْفَ هَذَا السَّجْنِ، حَتَّى أَدْرَكَ أُمْنِيَّتَهُ، وَظَفَرَ بِطَلْبَتِهِ (فَارَزَ بِمَطْلَبِهِ).

وَنَمَّةٌ أَصْبَحَ فِي عَالَمِ الضُّوءِ — بَعْدَ أَنْ طَالَ احْتِبَاسُهُ فِي عَالَمِ الظَّلَامِ — فَابْتَهَجَ لِهَذَا، وَاشْتَدَّ فَرَحُهُ، وَتَمَلَّكَهُ الزَّهْوُ (اسْتَوَى عَلَى نَفْسِهِ الْإِعْجَابُ)؛ فَظَلَّ يَهْتَزُّ — يَمْنَةً وَيَسْرَةً — وَهُوَ فَرِحَانٌ بِسَاقِهِ الْجَمِيلِ، وَوَرَقَتَيْهِ الْخَضْرَاوَيْنِ. وَكَانَ الطِّفْلُ الْبَلُوطِيُّ جَدِيرًا بِهَذَا الزَّهْوِ: فَقَدْ أُعْجِبَ بِهِ كُلُّ مَنْ رَأَاهُ.



وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ فَرَّاشَةٌ جَمِيلَةٌ، تُحْيِيهِ وَتَطِيرُ حَوْلَهُ فَرِحَةً مَسْرُورَةً، وَابْتَسَمَتْ لَهُ شَقَائِقُ
النُّعْمَانِ الْبَيْضَاءِ، وَحَيَّتُهُ تَحِيَّةَ الْإِعْجَابِ.

وَجَاءَتْ جَرَادَةٌ تَرْفَرِفُ عَلَيْهِ بِجَنَاحِهَا، وَتُرْحَبُ بِمَقْدَمِهِ. وَلَمْ يَنْغُصْ عَلَيْهِ صَفْوَهُ إِلَّا
دُوبَيْبَةُ الْحَلْزُونِ، تَلْكُمَا الدُّوَيْبَةَ (الدَّابَّةَ الصَّغِيرَةَ) الْبَغِيضَةَ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ — لِسُوءِ
أَدْبِهَا — تَمَسُّهُ بِقَرْنَيْهَا؛ فَيُؤْلِمُهُ مَسُّهَا، وَيَكْرُبُهُ (يَسُوءُهُ) لِمَسِّهَا.

فَإِذَا أَقْبَلَ الْمَسَاءُ، جَاءَتْ دُودَةٌ رَاحِفَةٌ مِنْ خِلَالِ الْحَشَائِشِ، حَتَّى إِذَا اقْتَرَبَتْ مِنْ
الْغُلَامِ الْبُلُوطِيِّ، فَرِحَتْ بِرُؤْيَيْهِ، وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا مُبْتَهَجَةً: «مَا أَلَذَّةُ عَشَاءٍ، وَمَا أَشْهَاهُ
طَعَامًا!»

ثُمَّ تُسْرِعُ الدُّودَةُ إِلَى نَبَاتِ الْبُلُوطِ، وَقَدْ فَرِحَتْ بِأَهْتِدَائِهَا إِلَى هَذَا الْعَشَاءِ الْفَاحِرِ،
وَتَصْعَدُ إِلَى سَاقِهِ مُتَسَلِّقَةً فِي خِفَّةٍ وَرَشَاقَةٍ. وَلَا تَزَالُ تَقْرِضُ أَطْرَافَ أَوْرَاقِهِ وَتَقْضُمُهَا
(تَأْكُلُهَا بِأَطْرَافِ أَسْنَانِهَا)، وَهُوَ يَرْتَجِفُ مِنَ الْأَلَمِ، وَيَذْكَرُ أَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ تُحَدِّثُهُ — وَهُوَ
عَلَى غُصْنِهَا — أَنَّ النَّبَاتَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْأَوْرَاقِ، لِيَتَنَفَّسَ مِنْهَا. وَثَمَّ يَشْتَدُّ بِهِ الْأَلَمُ، وَيَبْرَحُ
بِهِ (يُؤْذِيهِ) الْحَزْنُ؛ حَتَّى لَيَوُدُّ لَوْ أُتِيحَ (لَوْ تَهَيَّأَ) لَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى جَوْفِ الْأَرْضِ ثَانِيَةً، فَلَا
يُعْرِضُ نَفْسَهُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْأَذِيَّةِ. وَلَا تَزَالُ الدُّودَةُ دَائِبَةً عَلَى قَرِضِ الْوَرَقَةِ الْخَضْرَاءِ الْجَمِيلَةِ،
حَتَّى تَأْتِي عَلَيْهَا (تَأْكُلُهَا كُلَّهَا).

(٨) حَارِسُ النَّبَاتِ

ثُمَّ يَسْمَعُ الْغُلَامُ الْبَلُّوطِيَّ خَفَقَ أَجْنِحَةَ تَقْتَرِبُ مِنْهُ فَجَاءَهُ، ثُمَّ تَضْرِبُ رَأْسَهُ ضَرْبَةً قَوِيَّةً؛ فَتَذْهَبُ (تَنْسِيهِ)، وَتُرْنَحُهُ (تَضْعُفُهُ). وَلَا يَتَعَرَّفُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ، حَتَّى يُبْصِرَ طَائِرًا يَطِيرُ، وَفِي مَنْقَارِهِ الدُّودَةُ الْبَاغِيَّةُ (الظَّالِمَةُ) الَّتِي اعْتَدَتْ عَلَى أُرَاقِهِ. فَيَشْكُرُ لَهُ صَاحِبُنَا الْغُلَامُ الْبَلُّوطِيَّ هَذِهِ الْيَدَ (الْحَسَنَةَ وَالْفَضْلَ)، وَلَا يَنْسَى لَهُ الْجَمِيلَ. وَلَا يَزَالُ الصَّغِيرُ الْبَلُّوطِيَّ يُحْيِيهِ وَيَشْكُرُ لَهُ صَنِيعَهُ (مَعْرُوفَهُ)، وَهُوَ يَقُولُ:

لَقَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْهَلَاكِ بِأَعْجُوبَةٍ خَارِقَةٍ (غَيْرِ عَادِيَّةٍ). فَيَا لَيْتَ شِعْرِي (لَيْتَنِي أَعْلَمُ) كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرِي لَوْ فَقَدْتُ هَذَا الطَّائِرَ الْحَارِسَ الْكَرِيمَ، الَّذِي يَحْمِي أُرَاقِي مِنَ التَّلَفِ؟»

(٩) أُسْرَةُ الْبَلُّوطِ

كَانَ «ابْنُ دَائِيَّةٍ» يُقْصُ هَذَا التَّارِيخَ الْعَجِيبَ الْحَافِلَ (الْمَمْلُوءَ بِالْحَوَادِثِ)، عَلَى «أَبِي بَرِاقِشٍ» وَ«أُمِّ شَرْشَرَةَ»، وَهُمَا شَدِيدَا الْإِعْجَابِ بِمَا يَسْمَعَانِ. وَلَمْ تَفْتَهُمَا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الطَّرِيفَةِ. فَلَمَّا وَصَلَ «ابْنُ دَائِيَّةٍ» فِي حَدِيثِهِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، صَمَتَ (سَكَتَ) قَلِيلًا لَيْسْتَرِيحَ. ثُمَّ اسْتَأْنَفَ (عَادَ يَتَكَلَّمُ) نَاعِبًا (مُصَوِّتًا)، يَقُولُ: «مَرَّ عَلَى هَذَا الْحَادِثِ — أَيُّهَا الْعَزِيزَانِ — سُنُونَ عِدَّةً (سِنَوَاتٌ كَثِيرَةٌ)، فَقَوِي نَبْتُ الْبَلُّوطِ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَ شَجَرَةً كَبِيرَةً جَمِيلَةً، ذَاتَ جِذْعٍ (سَاقٍ) مَتِينٍ، وَأُورَاقٍ كَثِيفَةٍ، ظِلَالُهَا وَارِفَةٌ (وَاسِعَةٌ). وَصَارَ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ الضَّعِيفُ أَمَّا شَدِيدَةُ الْقُوَى، أَنْجَبَتْ (وَلَدَتْ أَبْنَاءً نَجْبَاءً)؛ فَصَارَتْ لَهَا أُسْرَةٌ كَبِيرَةٌ الْعَدَدِ مِنْ شُجَيْرَاتِ الْبَلُّوطِ الصَّغِيرَةِ.

وَكَانَتْ الْأُمُّ الْبَلُّوطِيَّةُ كَثِيرَةَ الْحَنَانِ (عَظِيمَةَ الرَّحْمَةِ)، شَدِيدَةَ الْعَطْفِ عَلَى أَبْنَائِهَا، تَبْسُطُ ذِرَاعَيْهَا عَلَيْهِمْ، لِتَحْمِيَهُمْ خَطَرَ الْعَاصِفَةِ إِذَا هَبَّتْ وَعَنْفَتْ (اشْتَدَّتْ)، حَتَّى لَا يُصِيبَهُمْ أَيُّ سُوءٍ.

وَكَانَتْ الشُّجَيْرَاتُ مُمْتَلِئَةً قُوَّةً وَصَلَابَةً. وَلَا غَرَوْ (لَا عَجَبَ)، فَقَدْ كَانَتْ شَدِيدَةَ النَّهْمِ (كَثِيرَةَ الْجُرْصِ عَلَى الْأَكْلِ). وَقَدْ تَكَاثَرَ عَدَدُهَا — عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ — حَتَّى تَأَلَّفَ مِنْهَا أَجْمَةٌ مَمْلُوءَةٌ بِشَجَرِ الْبَلُّوطِ الْجَمِيلِ. وَصَارَتْ الطُّيُورُ تَفِدُ (تَقْدُمُ) عَلَيْهَا وَتَجِيءُ إِلَيْهَا،

مَنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْجَوِّ — مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَسَاءِ — وَتُبْهِجُ الْغَابَةَ (تَسْرُهَا) بِأَغَارِيدِهَا
(أَغَانِيدِهَا) الْجَمِيلَةِ، وَأَصْوَاتِهَا الْعُدْبَةَ.

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ — مِنْ أَيَّامِ شَهْرِ مَآيُو — قَالَتِ الْبُلُوطَةُ لِأَبْنَائِهَا الشُّجَيْرَاتِ الصَّغِيرَةِ:
«لَقَدْ حَانَ وَقْتُ ازْدِهَارِكُمْ (جَاءَ زَمَنُ إِشْرَاقِ حُسْنِكُمْ) وَنُمُوكُمْ؛ فَاقْبِلُوا عَلَيَّ الْغِدَاءَ —
فِي نَهْمٍ — لِيَتِمَّ نَمَاؤُكُمْ، وَتَكْتَثُرَ ثَمَرَاتُكُمُ الَّتِي يَنْبُتُ — مِنْ بُدُورِهَا — أَبْنَاؤُكُمْ.»
نُمُّ اسْتَأْنَفَتِ الْبُلُوطَةُ قَائِلَةً:

«وَأَفْرَحْتَاهُ إِذَا تَمَّتْ لِي هَذِهِ الْأُمْنِيَّةُ؛ فَإِنِّي أَصْبِحُ حِينِيذٍ جَدَّةً، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتُ أُمًّا!»

وَزَلَّتِ الْأَجْمَةُ سَعِيدَةً بِهَذِهِ الْأُسْرَةِ، وَكَانَتْ شُجَيْرَاتُ الْبُلُوطِ دَائِمَةً الْإِبْتِهَاجَ وَالْمَرَحَ، تَقْضِي
أَكْثَرَ أَوْقَاتِهَا فِي أَحَادِيثِ وَأَسْمَارِ طَرِيفَةٍ، وَنَهْزُ رُءُوسِهَا مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ؛ فَتُدْعَرُ (تَتَفَرَّعُ)
أَفْرَاحُ الطُّيُورِ (أَبْنَاؤُهَا الصَّغِيرَةُ)، وَلَا تَجْرُؤُ عَلَيَّ أَنْ تَنَامَ بَيْنَ أَعْصَانِهَا، فَتُضْطَرُّ إِلَى الرُّقَادِ
فِي أَمَاكِنِ أُخْرَى.

(١٠) مَصَارِعُ الْبُلُوطِ

وَلَكِنَّ السُّرُورَ لَا يَدُومُ طَوِيلًا فِي هَذَا الْعَالَمِ: عَالَمِ النَّبَاتِ جَمِيعًا. فَمَا أَسْرَعَ وَفُودَ الْحَطَّابِينَ
— فِي فَجْرِ الْأَيَّامِ الْمُتَقَارِبَةِ — عَلَى الْغَابَةِ، حَيْثُ يُدْعِرُونَ الطَّيْرَ وَالِدَّوَابَّ، وَيُنْعِصُونَ
(يُكْدِرُونَ) عَلَيْهَا صَفَاءَهَا، وَيَطْرُدُونَ نَوْمَهَا الْهَادِيَّ؛ فَتَهْرَبُ الطَّيْرُ وَالسَّنَاجِيبُ، وَهِيَ
تَنْدُبُ سَوْءَ حَظِّهَا، وَتَرْتَجِفُ شُجَيْرَاتُ الْبُلُوطِ، كُلَّمَا سَمِعَتْ رَيْنَ الْفُئُوسِ الثَّقِيلَةِ فِي
الْجُدُوعِ الصَّغِيرَةِ النَّاشِئَةِ.

وَلَا يَزَالُ النَّاسُ يَحْتَطِبُونَ (يَقْطَعُونَ الْحَطَبَ) حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسَاءُ. وَلَقَدْ لَقِيتُ كَثِيرًا
مِنْ شُجَيْرَاتِ الْبُلُوطِ مَصَارِعَهَا، وَأَنْطَرَحَتْ عَلَى الْأَرْضِ مَيْتَةً لَا حَيَاةَ فِيهَا.
فَتَحَزَنُ أُمَّ الْبُلُوطِ لِهَلَاكِ بَنَاتِهَا، وَتَأَلَّمُ — لِفِرَاقِهِنَّ — أَشَدَّ الْأَلَمِ.
ثُمَّ لَا يَلْبُثُ بَدْرُ السَّمَاءِ الْجَمِيلِ أَنْ يَسْطَعَ فَوْقَ ذِرْوَةِ الْجَبَلِ (قَمَّتِهِ وَأَعْلَى مَكَانٍ فِيهِ)؛
فَتَقُولُ لَهُ الْأُمُّ الْحَزِينَةُ:



«حَبَّرَنِي أَيُّهَا الْبَدْرُ الْمُنِيرُ. حَدَّثَنِي أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْكَرِيمُ: لِمَاذَا يَقْتُلُ النَّاسُ أَوْلَادِي الْأَعْرَاءَ؟»

فَلَا تُتِمُّ قَوْلَهَا، حَتَّى تَعْتَرِضَ سَحَابَةٌ ضَوْءَ الْقَمَرِ؛ فَلَا تَسْمَعُ الْبُلُوطَةَ — لِسْوَالِهَا — رَدًّا. ثُمَّ لَا تَلْبَثُ النَّجُومُ أَنْ تَظْهَرَ فِي السَّمَاءِ، حَيْثُ تَتَلَأَلُ آلَافٌ مِنَ الْمَصَابِيحِ السَّمَاوِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الْبَدِيعَةِ.

فَتَقُولُ لَهَا شَجَرَةَ الْبُلُوطِ مُسْتَفْسِرَةً:

«بِرَبِّكَ حَبَّرِينِي، يَا نُجُومَ السَّمَاءِ. بِرَبِّكَ لَا تَكْتُمِي الْحَقِيقَةَ عَنِّي، أَيُّهَا الصَّدِيقَاتُ الْعَزِيزَاتُ. حَدِّثِينِي: مَا الَّذِي أَغْضَبَ النَّاسَ مِنِّي، أَيُّهَا الْكُوكَبُ اللَّامِعَاتُ؟ لِمَاذَا افْتَحَمُوا

عَلَيَّ غَابَتِي، وَرَاحُوا يَعْتَدُونَ عَلَى أَهْلِي وَعَشِيرَتِي؟ لِمَذَا قَتَلُوا بَنَاتِي، أَيَّتُهَا النُّجُومُ
الْمُؤْتَلَقَاتُ؟»

فَلَا تُجِيبُهَا الْكَوَاكِبُ، وَلَا تَرُدُّ عَلَيْهَا النُّجُومُ!

وَلَا تَزَالُ شَجَرَةُ الْبَلُوطِ سَاهِدَةً مُؤَرِّقَةً (سَاهِرَةً لَا يَزُورُهَا النَّوْمُ) لِحُزْنِهَا عَلَى أَبْنَائِهَا،
حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ؛ فَيَنْتَابُهَا الْمَرَضُ، وَيَحَاوِلُ أَصْدِقَاؤُهَا مِنْ طُيُورِ الْأَجَمَةِ أَنْ يَهْوِنُوا عَلَيْهَا
مَا تُكَابِدُهُ مِنَ الْمَمِّ (مَا نَقَّاسِيهِ مِنْ وَجَعٍ)؛ فَلَا يَجِدُونَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

(١١) عَزَاءُ الشُّحُرُورِ

فَإِذَا اقْتَرَبَ زَمَنُ الْخَرِيفِ أَصْفَرَّتْ أَوْرَاقُهَا، وَتَسَاقَطَتْ — وَاحِدَةً إِثْرَ أُخْرَى — وَتَجَوَّفَ
جَذْعُهَا (صَارَ سَاقُهَا فَارِغًا)، وَأَيَقَنَ الْجَمِيعُ أَنَّ مَصْرَعَهَا وَشَيْكُ، وَأَصْبَحُوا يَتَرَقَّبُونَ مَوْتَهَا
يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

وَكَانَتِ الْبَلُوطَةُ لَا تَنِي (لَا تُبْطِئُ) عَنْ سُؤَالِ كُلِّ مَنْ رَأَتْهُ:

«لِمَذَا قَتَلَ النَّاسُ أَوْلَادِي؟»

فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مَرَّ بِهَا شُحُرُورٌ شَيْخٌ، فَلَمَّا أَلْفَتَ عَلَيْهِ هَذَا السُّؤَالَ — وَقَدْ أَلْفَتَهُ عَلَى
غَيْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ — قَالَ لَهَا:

«لَمْ يَقْتُلِ النَّاسُ أَوْلَادَكَ انْتِقَامًا مِنْكَ، كَمَا تَظُنِّينَ؛ فَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ تِرَةٌ (ثَأْرٌ)
وَلَا عَدَاوَةٌ. إِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسُ أَبْنَاءَكَ، لِأَنَّهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِمْ؛ فَهُمْ يَتَدَفَّقُونَ بِأَجْسَامِهِمْ
الْحَشَبِيَّةَ، وَلَا يَسْتَعْنُونَ عَنْ حَطْبِهِمْ، كَمَا أَنَّهُمْ يَسْتَعِينُونَ بِقَشْرِهِمْ فِي صُنْعِ نِعَالِهِمْ.
وَحَسْبُكَ (يَكْفِيكَ) أَنْ يَكُونَ أَوْلَادُكَ نَافِعِينَ؛ فَلَيْسَ أَبْهَجَ لِلنَّفْسِ مِنْ أَنْ تَشْعُرَ بِأَنَّهَا أَدَّتْ
قَسْطَهَا (قَامَتْ بِنِصِيبِهَا) مِنْ خِدْمَةِ النَّاسِ!»

فَابْتَهَجَتْ شَجَرَةُ الْبَلُوطِ، وَسَرَّى عَنْهَا (خَفَّ أَلْمَهَا)، حِينَ سَمِعَتْ كَلَامَ الشُّحُرُورِ،
وَتَعَزَّتْ (تَصَبَّرَتْ) عَنْ فَقْدِ بَنَاتِهَا الْعَزِيرَاتِ.

ثُمَّ جَاءَ الرَّبِيعُ، فَأَخَذَتْ شَجَرَةُ الْبَلُوطِ زِينَتَهَا، وَاسْتَعَادَتْ بَهْجَتَهَا. وَلَمْ يَحُلَّ الْخَرِيفُ،
حَتَّى أَصْبَحَتْ أَغْصَانُهَا مُحَمَّلَةً بِزَهْرَاتٍ جَمِيلَةٍ بَرَّاقَةٍ.»

(١٢) الْعُشُّ الصَّغِيرُ

وَهُنَا قَالَتْ «أُمُّ شَرْشَرَةَ» لِـ«ابْنِ دَأْيَةَ»:

«مَعْدِرَةٌ — يَا ابْنَ دَأْيَةَ — إِذَا قَطَعْتَ عَلَيْكَ حَدِيثَكَ الْمُمْتَعِ؛ فَقَدْ ذَكَرْتُ الْآنَ شَيْئًا
مُهَمًّا أُرِيدُ أَنْ تُفَسِّرَهُ لِي.»

فَقَالَ لَهَا «الْعُقُقُ»: «سَلِي مَا تَشَائِنِ.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرْشَرَةَ»:

«لَقَدْ رَأَيْتُ كُرَاتٍ حُمْرًا عَلَى وَرَقِ الْبُلُوطِ؛ فَلَمْ أَدْرِ: أَيُّ شَيْءٍ هِيَ؟

كَانَ ذَلِكَ فِي الصَّيْفِ الْمَاضِي إِبَّانَ (حِينَ) تَغَيَّبَ زَوْجِي «أَبِي بَرَاقِشَ»؛ فَذَهَبْتُ لِزِيَارَةِ
إِحْدَى صَدِيقَاتِي مِنَ الْعَصَافِيرِ، وَظَلَّلْنَا نَمْرُحَ وَنَلَعْبُ مَعَا لُعبَةَ الْإِسْتِحْفَاءِ — بَيْنَ أَغْصَانِ
شَجَرَةِ الْبُلُوطِ — فَلَمَحَتْ الْكُرَاتِ الْحُمْرُ. وَقَدْ أَعْجَبَنِي لَوْنُهَا الْبَدِيعُ الْقَانِي (الشَّدِيدُ
الْحُمْرَةَ)؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَعَلَّهَا «كَرْزُ». ثُمَّ أَسْرَعْتُ إِلَيْهَا، فَتَقَرَّرْتُهَا، وَهَمَمْتُ بِأَكْلِهَا. وَمَا
تَدَوَّقْتُهَا حَتَّى وَجَدْتُ لَهَا طَعْمًا مَرًّا لَدَاعًا، كَادَ — لِمَرَارَتِهِ وَلَذَعِهِ — يُحْرِقُ لِسَانِي، وَخَيَّلَ
إِلَيَّ أَنْبِيَّ تَدَوَّقْتُ سَمًّا قَاتِلًا! فَقَالَ «ابْنُ دَأْيَةَ»، وَهُوَ يَهْزُ رَأْسَهُ سَاحِرًا:

«مَا أَعْجَبَ شَرْهَكِ، وَأَشَدَّ بَلَاهَتِكَ، يَا ابْنَةَ أَخِي الطَّائِشَةَ! كَيْفَ دَارَ بِحَلْدِكَ (كَيْفَ مَرَّ
بِحَاطِرِكَ) أَنْهَا «كَرْزُ»؟ وَهَلْ يَنْبُتُ الْكَرْزُ فِي شَجَرِ الْبُلُوطِ؟ فَكَيْفَ تَحْكُمِينَ، يَا عَزِيزَتِي؟
إِنَّ هَذِهِ الْكُرَّةَ لَيْسَتْ إِلَّا عُشًّا صَغِيرًا.»

فَصَاحَتْ «أُمُّ شَرْشَرَةَ» مَدْهُوشَةً:

«آه! كَلَّا — يَا عَمِّي — فَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ تَكُونَ عُشًّا»

فَقَالَ لَهَا «الْعُقُقُ»: «بَلْ كَانَتْ عُشًّا، بِلَا رَيْبٍ. وَكَانَ يَرْفُدُ فِيهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ. وَلَوْ
أَنَّكَ أَنْعَمْتَ النَّظَرَ، لَرَأَيْتِ — فِي ذَلِكَ الْعُشِّ الصَّغِيرِ — دُودَةً مِنْ تِلْكَ الدِّيدَانِ الَّتِي تَبْحَثِينَ
عَنْهَا مُجِدَّةً جَاهِدَةً.»

فَقَالَتْ «أُمُّ شَرْشَرَةَ»: «وَأَسْفَاهُ عَلَى ضِيَاعِ تِلْكَ الْفُرْصَةِ الثَّمِينَةِ! لَقَدْ فَوَّتْنَا عَلَى نَفْسِي

بِجَهْلِي وَعَبَاوَتِي. وَلَيْتَنِي عَرَفْتُهَا، إِذْ نَلْنَعَمْتُ بِذَلِكَ الطَّعَامِ الْفَاحِرِ اللَّذِيذِ!»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «الْعُقُقُ» حَدِيثَهُ قَائِلًا:

«إِنِّي مُحَدِّثُكَ — يَا أُمَّ شَرْشَرَةَ — عَنِ فَائِدَةِ هَذِهِ الْكُرَاتِ الَّتِي يُسْمُونَهَا اسْمًا نَسِيئُهُ ... وَاسْفَاهُ يَا عَزِيزَتِي، فَإِنِّي أَجِدُّبِي قَدْ فَقَدْتُ الذَّاكِرَةَ بِلَا رَيْبٍ!»

(١٣) قِصَّةُ صَادِقٍ

فَهَمَسَ «أَبُو بَرَّاقِشَ» فِي أُذُنِ «الْعُقَعَقِ»:

«صِهْ، أَيُّهَا النِّعْمُ الْكَرِيمُ. حَذَارِ أَنْ تَتَكَلَّمَ؛ فَإِنِّي أَرَى شَخْصًا يَمُرُّ فِي الطَّرِيقِ، وَهُوَ — فِيمَا يُلُوحُ لِي — شَيْخٌ مَقْوَسُ الظَّهْرِ، يَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِهِ قَفْصًا.»
فَقَالَ «الْعُقَعَقُ»، وَقَدْ عَرَفَهُ مِنْ سَمْتِهِ (هَيْئَتِهِ) وَمَشِيئَتِهِ:
«أَلَا تَعْرِفَانِ هَذَا الشَّيْخَ؟ كَلَّا! مَا أَطْنُكُمَا تَعْرِفَانِهِ؛ فَإِنُّكُمَا لَا تَزَالَانِ صَغِيرَيْنِ. لَقَدْ كَانَ هَذَا الشَّيْخُ الْهَرَمُ مِنْ أَصْدِقَاءِ «جَبَّارَةِ الْغَابَةِ»، مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ.
وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ اسْمَهُ «صَادِقٌ». وَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى «جَبَّارَةِ الْغَابَةِ» فِي زَمَنِ طُفُولَتِهِ، وَيَلْهُو — مَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو — فِي أَجْمَتِنَا. ثُمَّ وَقَعَ لَهُ حَادِثٌ مُفْرَعٌ مُؤَلِّمٌ؛ فَلَمْ أَرَهُ مُنْذُ هَذَا الْحِينِ ...

إِنَّهَا قِصَّةٌ قَدِيمَةٌ الْعَهْدِ.»

فَقَالَ الشُّرْشُورَانُ:

«لَيْتَكَ تَقْضِيهَا عَلَيْنَا — يَا أَبَا الْعُقَعَقِ — فَإِنَّنَا شَدِيدَا الشَّغْفِ بِسَمَاعِ الْقِصَصِ.»

فَقَالَ «الْعُقَعَقُ»:

«لَكُمَا مَا تُرِيدَانِ يَا وَلَدَيَّ، وَإِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكُمَا حَدِيثَهُ الْمُحْزِنَ.
لَقَدْ تَسَلَّقَ هَذَا الشَّيْخُ — وَكَانَ جِينُذٌ صَبِيًّا — جِذْعَ الدَّوْحَةِ الْجَبَّارَةِ الْهَائِلَةِ حَتَّى بَلَغَ قَمَمَهَا.

ثُمَّ جَلَسَ عَلَى أَحَدِ أَغْصَانِهَا الْعَالِيَةِ، وَضَمَّ سَاقًا إِلَى سَاقٍ، وَظَلَّ يَرْتَجِحُ (يَمِيلُ يَمِينًا وَيَسَارًا، كَأَنَّهُ فِي أَرْجُوْحَةٍ) مَسْرُورًا، وَيَصِيحُ مُبْتَهَجًا:

«أُنْتِ جَوَادِي وَأَنَا الْحَادِي
لَيْسَ لِمِثْلِي مِنْ أَنْدَادِ

جَبَّارَةُ الْغَايَةِ

غَيْرُ شَقِيقِي عَبْدُ الْهَادِي
مَا أَنْجَبْنَا فِي الْأَوْلَادِ
مَا أَمْجَدْنَا فِي الْأَمْجَادِ

كَمْ أَرْغَمْنَا مِنْ حُسَّادِ
وَتَرَأْسْنَا حَشْدَ النَّادِي
أَنْتَ جَوَادِي وَأَنَا الْحَادِي
حَادٍ بَادٍ فِي بَغْدَادِ

وَوَظَلَّ يُعْنِي هَذِهِ الْأُغْنِيَةَ الْجَمِيلَةَ، وَلَمْ يَدْرِ مَا يَحْبُوهُ لَهُ الْقَدْرُ. ثُمَّ كَسَرَ الْغُصْنَ — فَجَاءَ — وَهَوَى (سَقَطَ) «صَادِقٌ» إِلَى الْأَرْضِ، وَأَصْبَحَ فِي حَالٍ يُرْتَى لَهَا (تَسْتَدْعِي الشَّفَقَةَ).

وَقَدْ حَزَنْتَ طُيُورَ الْغَايَةِ لِمُصَابِهِ، وَتَأَلَّمْتَ لِأَلَمِهِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّهُ وَتَأْنِسُ بِهِ. وَمَا أَجْدَرَهُ بِحُبِّهَا؛ فَقَدْ كَانَ غَلَامًا طَيِّبَ الْقَلْبِ، لَا يَدَّخِرُ وَسْعًا فِي إِسْعَادِ الطُّيُورِ وَبِرِّهَا، وَتَقْدِيمِ فُتَاتِ الْحُبِزِ إِلَيْهَا فِي الشِّتَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ يَمَسُّ أَوْكَارَهَا (أَعْشَاشَهَا) بِسُوءٍ. ثُمَّ عَادَ الصَّبِيُّ التَّاعِسُ إِلَى بَيْتِهِ أَعْرَجَ، لَا يَمْشِي إِلَّا بِبِشْقِ النَّفْسِ (بِتَعَبِهَا وَمَشَقَّتِهَا)، وَلَمْ يَعُدْ إِلَى شَجَرَةِ الْبُلُوطِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي.

فَحَزَنْتَ الطَّيْرَ، وَاسْتَوْحَشْتَ لِغَيْبَتِهِ، وَكَفَّتْ عَنِ التَّغْرِيدِ أُسْبُوعًا كَامِلًا. وَكَانَتْ الْأَطْيَارُ تُخْرِجُ رُءُوسَهَا مِنْ بَيْنِ أَجْنِحَتِهَا فِي الْمَسَاءِ وَتَنْدُبُهُ، مُتَحَسِّرَةً عَلَيْهِ، فَتَهْدَتْهَا أُمَاتُهَا، وَتُعْزِيهَا فِي مُصَابِهَا بِفَقْدِهِ. ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ أَيَّامٍ، وَقَدْ شُفِيَ — بِفَضْلِ عِنَايَةِ أُمِّهِ — وَاسْتَعَادَ نَشَاطَهُ وَصِحَّتَهُ. فَابْتَهَجَتِ الطُّيُورُ بِمَقْدَمِهِ (فَرِحَتْ بِقُدُومِهِ)، وَغَرَدَتْ (عَنَّتْ)، وَحَمَدَتِ اللَّهُ عَلَى شِفَائِهِ.



(١٤) أَلَامُ الشَّيْخُوْحَةِ

ثُمَّ صَمَتَ «الْعَقْعُقُ». وَظَلَّتْ «أُمُّ شَرْشَرَةَ» تَنْقُرُ صَدْرَهَا بِمِنْقَارِهَا. أَمَّا زَوْجُهَا، فَقَدْ تَرَفَّرَتْ دَمْعَةٌ فِي عَيْنِهِ — مِنْ شِدَّةِ التَّأَثُّرِ — وَظَلَّ يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْخِ «صَادِقٍ» حَتَّى اخْتَفَى عَنْ عَيْنَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ «الْعَقْعُقُ»:

«وَأَحْسَرْتَاهُ! لَمْ يَبْقَ مِنْ قِصَّةِ هَذِهِ الْجَبَّارَةِ إِلَّا الْحَدِيثُ عَنْ ذِكْرِيَاتِهَا الْمُؤَلِّمَةِ فِي أَيَّامِهَا الْأَخِيرَةِ. فَقَدْ مَرَّتِ السَّنُونَ الْمُتَعَابِقَةُ (السَّنَوَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ) عَلَى الشَّجَرَةِ الْهَرِمَةِ، حَتَّى أَجْهَدَتْهَا الشَّيْخُوْحَةُ، وَأَصْبَحَتْ أَكْبَرَ شَجَرَاتِ الْأَجْمَةِ سِنًا.

وَقَدْ كَانَ جَدِّي ذَكِيًّا عَارِفًا بِالتَّارِيخِ، وَهُوَ يُؤَكِّدُ لَنَا أَنَّ عُمَرَ شَجَرِ الْبُلُوطِ يَبْلُغُ ثَلَاثَ مِائَةِ شِتَاءٍ.

جَبَارَةُ الْغَايَةِ

أَمَا أَنَا، فَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْتَلَّ لِنَفْسِي (أَتَصَوَّرَ) مِثْلَ هَذَا الْعُمْرِ الطَّوِيلِ؛ لِأَنَّ إِدْرَاكِِي خَفِيفٌ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَيَّلَهُ.

وَمَهْمَا يَكُنْ فِي دُنْيَانَا — مِنْ أَمْرٍ — فَإِنَّ لِكُلِّ بَدَايَةٍ نِهَآيَةً وَإِنَّ لِكُلِّ عُمْرٍ — مَهْمَا يَطُلُّ — غَايَةً، وَلَا بَدَأَ لِكُلِّ مَوْلُودٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ أَنْ يَمُوتَ. فَلَا عَجَبٌ إِذَا أَدْرَكْتَ الشَّيْخُوخَةَ جَبَارَةَ الْغَايَةِ، فَأَضْجَرْتَهَا (مَلَأَتْ نَفْسَهَا غَمًّا)؛ لِأَنَّ جَمِيعَ أَصْدِقَائِهَا — مِنْ عَهْدِ الطُّفُولَةِ — قَدْ مَاتُوا مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، وَلَيْسَ أَلَمٌ لِلنَّفْسِ مِنْ فَقْدِ أَصْدِقَاءِ الطُّفُولَةِ، وَرُفَقَاءِ الشَّبَابِ!

(١٥) النَّقَارُ الْأَخْضَرُ

وَلَمَّا جَاءَ شَهْرُ نُوفَمِبَرٍ، وَاقْتَمَّتِ السَّمَاءُ (اسْوَدَّتْ وَأَظْلَمَتْ مِنَ الْعُيُومِ)، وَبَرَدَ الْجَوُّ، أُتِيحَ (تَهَيَّأَ) لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ الْعُجُوزِ رَفِيقٌ بَارٌّ مُخْلِصٌ؛ فَظَلَّ لَهَا سَمِيرًا وَمُؤْنَسًا طَوِيلَ حَيَاتِهَا.

وَكَانَتْ شَجَرَةُ الْبُلُوطِ الْعُجُوزُ — حِينِيذٍ — تَتَأَهَّبُ لِرُقَادِهَا (تَسْتَعِدُّ لِنَوْمِهَا) السَّنَوِيِّ الطَّوِيلِ الَّذِي يَسْتَعْرِقُ الشَّهْرَ كُلَّهُ. وَلَكِنَّ ضَجَّةَ مُدَوِيَّةٍ زَعَزَعَتْهَا مِنْ فِرْعِهَا إِلَى أَصْلِهَا (مِنْ أَعْلَاهَا إِلَى أَسْفَلِهَا). وَلَمْ تَكُنْ الضَّجَّةُ الْعَنِيفَةُ إِلَّا طَلْقًا نَارِيًّا، خَرَجَ مِنْ بُدْقِيَّةِ صَيَّادٍ يَجُوسُ (يَمْشِي) خِلَالَ الْأَجْمَةِ، وَخَلَفَهُ كَلْبُهُ.

وَسَمِعَتْ شَجَرَةُ الْبُلُوطِ — حِينِيذٍ — صَوْتَ صَفِيرٍ مُنْقَطِعٍ يَنْبَعُثُ مِنْ نَقَارٍ أَخْضَرَ، يَرْتَعِدُ فَرَعًا، وَيُوشِكُ أَنْ يَهْلِكَ مِنَ الدُّعْرِ؛ فَقَدْ كَانَ النَّقَارُ الْأَخْضَرُ يَنْزُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَيَقُولُ:

«لَقَدْ هَلَكْتُ، فَمَا حِيلَتِي؟ وَمَنْ لِي بِالنَّجَاةِ مِنْ مُطَارِدَةِ الصَّيَّادِ؟ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ أَسْتَخْفِي؟»

فَقَالَتْ لَهُ «جَبَارَةُ الْغَايَةِ» الْعُجُوزُ:

«إِلَى يَا صَدِيقِي النَّقَارِ الْأَخْضَرَ، هَلُمَّ فَانزِرُوا فِي هَذَا الثُّقْبِ الَّذِي تَرَاهُ بَيْنَ غُصْنَيْ

الْكَبِيرَيْنِ.»

فَأَسْرَعَ النَّقَارُ الْأَخْضَرُ إِلَى الشَّجَرَةِ، وَخَبَأَ نَفْسَهُ فِي الْمَحْبِإِ الْأَمِينِ.

وَمَرَّ بِهِ الصَّيَّادُ وَكَلْبُهُ، دُونَ أَنْ يَفْطِنَا إِلَى مَكَانِهِ. فَلَمْ يَنْسِ النَّقَارُ الْأَخْضَرُ — لِشَجَرَةِ

الْبُلُوطِ — هَذِهِ الْيَدَ، وَشَكَرَ لَهَا أَنْ أَنْقَذَتْ حَيَاتَهُ، وَفَكَرَ طَوِيلًا فِي مُكَافَأَتِهَا عَلَى صَنِيعِهَا.



ثُمَّ هَدَاهُ تَفَكِيرُهُ إِلَى الْفَحْصِ عَنْ جِدْعِهَا؛ فَرَأَى كَثِيرًا مِنَ الْحَشَرَاتِ قَدْ تَجَمَّعَتْ حَوْلَ الْجِدْعِ تَأْكُلُهُ، حَتَّى نَخَرَبْتُهُ (جَعَلْتُ فِيهِ ثُقُوبًا وَشُقُوقًا). فَلَمَّا رَأَى جِدْعَهَا قَدْ نَخَرَ (بَلَى) وَتَفَنَّتْ (وَفَسَدَتْ) عَلَى (حَلَفَ) عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُبِيدَهَا (يُهْلِكُهَا) جَمِيعًا. وَظَلَّ يَلْتَهُمُ الْحَشَرَاتِ، دَائِبًا (مُوَاطِبًا) عَلَى مُطَارَدَتِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ، مِنْ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَسَاءِ.

وَكَانَتْ أَسْرَابُ الْحَشَرَاتِ (جَمَاعَاتُهَا) كُلَّمَا رَأَتْهُ، هَمَّتْ بِالْفِرَارِ. وَلَكِنَّهُ كَانَ يَمُدُّ لِسَانَهُ إِلَيْهَا، فَيَلْتَقِطُهَا — مِنْ فُورِهِ — وَيَرَى فِي هَذِهِ الْحَشَرَاتِ السَّمِينَةِ أَشْهَى غِذَاءٍ لَهُ. وَلَمَّا حَلَّ الشِّتَاءُ، لَمْ يَشَأِ النَّقَارُ الْأَخْضَرُ أَنْ يَتْرُكَ صَدِيقَتَهُ الْعَزِيزَةَ، فَظَلَّ فِي مَحَبَّتِهِ بَيْنَ أَغْصَانِهَا، صَابِرًا عَلَى بَرْدِ الشِّتَاءِ الْقَارِسِ، وَقَدْ زَهَبَ رَيْشُهُ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ طَوِيلَ أَيَّامٍ هَذَا الْفَصْلِ؛ فَكَانَ يَقْضِي سَاعَاتٍ طَوِيلَةً يَتَحَدَّثُ فِيهَا إِلَى صَدِيقَتِهِ «جَبَّارَةَ الْغَابَةِ» عَنْ جَمَالِ أَيَّامِ الشَّبَابِ..»

(١٦) خَاتِمَةُ الْحَدِيثِ

ثُمَّ صَمَتَ «الْعَفْعَقُ» عَنِ الْكَلَامِ، وَلَبِثَ الشُّرْشُورَانِ صَامِتَيْنِ. وَظَلَّ ثَلَاثَتُهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي قِصَّةِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْعُجُوزِ، الَّتِي لَقِيتْ حَتْفَهَا (مَاتَتْ) فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَارْتَمَتْ عَلَى الْحَشَائِشِ الْمُحْضَرَّةِ.

جَبَّارَةُ الْغَايَةِ

ثُمَّ قَالَتْ «أُمُّ شَرِّشَرَةٍ»: «تُرَى: كَيْفَ كَانَتْ خَاتِمَةُ النَّقَّارِ الْأَخْضَرِ؟»
فَقَالَ «أَبُو بَرَّاقِشَ»:

«لَعَلَّ الْعَاصِفَةَ قَدْ أَهْلَكْتُهُمَا مَعًا!»

فَقَالَ «ابْنُ دَائِيَّةَ»: «لَسْتُ أُسْتَبَعِدُ دَلِكُمَا، يَا وَلَدِي الْعَزِيزَيْنِ! فَلَا تَحْزَنَا عَلَيْهِمَا، فَكُنَّا
لِلْفَنَاءِ.»